بداية أم نهاية الاختلاف في زمن الحركيات العابرة للحدود؟

The beginning or end of the difference in the time of cross-border movements?

د. عبد القدر بوطالب

جامعة تطوان – المغرب

الملخص :

اذا كانت ظاهرتي الاختلاف والتشابه الثقافيان قد ارتبطت ببداية البحث الانثروبولوجي، فإن العالم اليوم يعرف ديناميات جديدة، وبالخصوص فيما يتعلق بفهم ظاهرة التغير الثقافي نتيجة الحركيات العابرة للحدود، والتي جعلت كل حديث عن العزلة الثقافية أمرا متجاوزا، وبالتالي، أصبح العالم يتجه تكريس التشابه والتماثل في العديد من المستويات والأصعدة، وأصبحت الهيمنة ثقافية أكثر وضوحا نتيجة الثورة الإعلامية الحديثة، حيث أصبح العالم يتجه نحو تكريس ثقافة كونية ، والتي تجسدت في الهيمنة الكونية للحداثة وقيمها، إذ هناك تقارب وتشابه كوني في أنماط الحياة، فالكوني أصبح يفرض ذاته أينما توجهنا وحللنا، فنحن إزاء عالم بحدود أقل، أو تكاد تنعدم. فكيف يمكن اعادة مقاربة الكوني والمحلي، وهل يمثل بداية تشكل ثقافة كونية نهاية الصراع على المستوى الثقافي والحضاري؟ وكيف بالإمكان ادارة الصراع و احتواءه من اجل عالم يقبل الاختلاف ويضمن التعايش ويكرس التسامح؟.

كلمات مفاتيح: الحركيات العابرة للحدود – التشابه والاختلاف- المحلي والكوني- العزلة الثقافية- العولمة.

Abstract:

If the two phenomena of cultural difference and similarity have been associated with the beginning of anthropological research, the world today knows new dynamics, in particular with regard to understanding of the phenomenon of cultural change as a result of cross-border movements, Which made all talk of cultural isolation something beyond, And therefore, has become the world tends to devote the similarity and uniformity in many levels, And cultural dominance became more evident as a result of the modern media revolution,

Where the world is moving towards the establishment of a global culture, Which were embodied in the universal hegemony of modernity and its values, As there is a convergence and similarity in the cosmic patterns of life, The global is imposing itself wherever we go , We are about a world with fewer, or less, borders. How can a global and local approach be restored? Is it the beginning of the formation of a global culture end of conflict at the cultural and civilizational level?. How can the conflict be managed and contained for a world that accepts diversity, ensures coexistence and enshrines tolerance?

Key words:Transboundary Movements- Similarity and difference- Local and global -Cultural isolation-Globalization.

تمهيد :

شكل الاختلاف أو التنوع بالمعنى العام الظاهرة الأكثر أهمية في تاريخ الإنسانية، وبشكل أدق في تاريخ العلوم الاجتماعية، ذلك أن تنوع الأجناس والأديان واللغات وباختصار تنوع الحضارات واختلافها كون القاعدة الأولى التي تأسست عليها الأسئلة الكبرى التي طورت معظم فروع العلوم الاجتماعية ، فالمختلف هو من حرك كل الأسئلة التي شغلت الانا، ولا تزال إلى يومنا هذا، إذ أن الآخر المختلف ظل- بطريقة أو بأخرى - حاضرا في تمثلات وتصورات الأنا، سواء باعتباره مصدر لخطر فعلي أو محتمل، أو فقط بسبب وجود هذا الاختلاف بين الانا والاخر، إذ نظر إلى الاختلاف كمشكلة كبيرة في حد ذاته، فكان ذلك سببا في إشعال النزاعات والحروب وإذكاء الخلافات و المخاصمات. الأمر الذي جعل التشابه أمرا مستحبا ومطلبا ملحا، ذلك لأنه يعني تحقيق أقصى درجات الوحدة والانسجام، لكن ومع ذلك يحق لنا التساؤل: أليس في التشابه تكريسا للرتابة والجمود؟ وأليس في الاختلاف غنى وثراء، بحيث يسمح بإطلاق ملكات الابداع والتجديد؟ فالاختلاف يعد مشكلة، ولكنه ليس ظاهرة سلبية[1].

[1]- بوطالب عبد القادر:" الاختلاف والتماثل الثقافيان، رؤى انتروبولوجية"، **مجلة كلية الادب والعلوم الإنسانية** بتطوان العدد17 السنة 2013

يعتبر بعض الباحثين الاختلاف ظاهرة طبيعية[1]، تقترن بنزعة التمركز حول الذات، فكل جماعة بشرية إلا وتنكمش حول ذاتها، وتفترض أن الايجابي يقع داخل حدودها، وأن السلبي يوجد خارج حدودها، هذا المنطق يحكم كل الجماعات البشرية، ويكاد يكون شعورا كونيا[2]، تتقاسمه الإنسانية جمعاء، والذي غالبا ما يكون أحد العوامل المكرسة للكراهية والحقد و العداء بين الجماعات البشرية، فالآخر -كان على الدوام -موضوع احتقار وازدراء، وألصقت به كل الاوصاف الدالة على الدونية والتخلف، فالأخر كان - ولفترة من التاريخ - مجرد حيوان يرتبط بأقصى درجات التوحش ، وأصبح يقترن بالتخلف والبدائية حينما ازدهرت الاكتشافات والحركات الاستعمارية، وأصبح في بعض الاوقات مرادفا للكفر، وثم ارتبط بالإرهاب، وأصبح مصدرا لكل الشرور التي يمكن أن تقع في العالم. وهكذا، والأمر نفسه ينطبق على الذات في علاقتها بهذا الآخر.

إذا كانت الأسئلة التي اقترنت بظاهرة الاختلاف أو التعدد سمحت بتطور العديد من العلوم الاجتماعية وبالخصوص في حقول الانثرولوجية، فإن ظاهرة التشابه أو التماثل لم تكون غائبة عن مجال البحث والدراسة. وبالفعل، فالأبحاث في هذا المجال انتهت إلى خلاصات جديرة بالاهتمام، والتي أكدت على وجود مقام مشترك بين الثقافات والحضارات، والذي عرف بالنمط الثقافي العام، حيث نجد أن هذا النمط يكاد يكون متماثلا بين كل الثقافات من حيث المحتوى والمضمون، إلا أن الاختلاف يمس فقط التفاصيل والأجزاء[3].

اختلفت الأبحاث والدراسات التي تناولت النمط العام الثقافي، إذ نجد أن بعض الباحثين اعتبروا أن ظاهرة التشابه تجد مبرراتها في وجود ذهنية مشتركة، وبالتالي أرجعوا ظاهرة الاختلاف إلى تنوع الظروف والاشتراطات الاجتماعية، فالتشابه يجد تفسيره في وجود دوافع أساسية متشابهة، وإن كانت الأبحاث قد انتهت – في هذا السياق -إلى ضرورة الانتباه الى الدوافع المكتسبة، والتي يصبح اشباعها أهم من الدوافع الغريزية، بينما أرجع البعض الأخر ظاهرة التشابه إلى عامل الانتشار، فربطوا بين ظاهرة التشابه ووجود مركز كوني تشكلت فيه

[1] - Claude Lévi-Strauss : **race et histoire**, Paris , ed :Gallimard, col, folio essais 2003

[2]- جيرار كليرك : **الأنثروبولوجيا والاستعمار**، ت، جورج كتورة ، معهد الانماء العربي ، الطبعة الأولى ،1986.

[3] - رالف لنتون: **الانتروبولوجيا و أزمة المجتمع الحديث**، ترجمة، عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية صيدا / بيروت ومؤسسة فركلين بيروت / نيويورك ،أنظر على وجه التحديد : المقام المشترك للثقافات، عمليات التغير الثقافي ، مفهوم الثقافة.

وتطورت كل الثقافات والحضارات، ومنه انتشرت إلى باقي العالم، ومن ثم يمكن رد الاختلاف إلى السمات التي تكتسبها الانماط الثقافية وهي تنتقل من مجال إلى آخر، لذلك يستحيل – وفق هذا التصور –الحديث عن ثقافة خالصة culture pure [1].

1- نهاية العزلة الثقافية والديناميات الجديدة لمقاربة ظاهرة التغير الاجتماعي.

فقد مفهوم العزلة الثقافية الكثير من وجاهته العلمية، فأصبحت ظاهرتي الاختلاف والتشابه تطرحان بأسئلة جديدة تستحضر مجمل العمليات التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار في عمليات التغير الاجتماعي والتي أصبحت المجتمعات المعاصرة مسرحا لها.

لا يمكن لأية مقاربة تتوخى فهم وتفسير ظاهرة التغير الاجتماعي في الوقت الراهن، أن تستقيم دون أن تتأسس على معرفة دقيقة وعميقة بالظواهر العابرة للحدود وسياقاتها التاريخية، فالأمر يتعلق بكم هائل من الديناميات الاجتماعية، والتي تتشكل في إطار معقد من عمليات التفاعل والتأثير المتبادل والتقاطعات الاجتماعية والثقافية.

تشير الحركيات العابرة للحدود إلى نهاية الحدود وتراجع مفهوم السيادة بالمعنى التقليدي، ذلك أن النظام والأمن ما عادا مرتبطين بالحدود بالمعنى الذي كان سائدا في الماضي، فالعولمة أفرزت الحركيات العابرة للحدود، إذ أصبح كل شيء قابلا للانتقال والهجرة، ومفروضا على الجميع التعامل معه ابتداء من الأفكار والبضائع والأشخاص وانتهاء بالتنظيمات، وانعكس هذا الواقع الجديد على الداخل السياسي والاجتماعي لكل البلدان، فالحدود لم تعد لها نفس الدلالة والمحتوى، ولم تعد تعني السيادة، ولا الحد الفاصل بين الداخل من جهة كمجال متميز ومنفرد، والذي يختزل السياسي بكل أبعاده، ويجعل قوة الدولة تقترن بحماية حدودها، والخارج من جهة أخرى بوصفها خطرا، والذي من خلالها تكتمل جدلية الداخل والخارج[2].

يكتمل المعنى العميق للحرب من خلال الحدود [3]، فالحروب تقام على الحدود، وتبدو كضرورة حيوية على أكثر من صعيد، ذلك لأنها تمثل أهم مصدر للمشاعر الوطنية والانفعالات

[1] - Roger Bastide :" diffusionnisme " **in encyclopoedia Universalis**, (en ligne) http://www.universalis.fr/encyclopedie/diffusionnisme/

[2] - Balandier Georges :**Anthropologie politique**, Paris, ed :PUF, 1971

[3] -Julien Freund : **Essence du politique**, Paris, éditions Sirey,1965.

الجماعية، بل إنها تجسد قمة الوعي بالنسبة للدولة[1]، " إن الدولة بحاجة للحرب لكي تكون قوية، إنها(أي الدولة) تنتعش عندما تقرع طبول المدافع، ويعم الخوف وتسود الحاجة"[2].

لا تحتاج الكثير من الظواهر والوقائع لأي ترخيص من السلطات الداخلية لهذا البلد أو ذاك لتنتقل وتعبر الحدود، وتعتبر الحركات الاسلامية في هذا السياق نموذجا للحركيات العابرة للحدود، فهي تشكل شبكة عالمية، تعمل وفق استراتيجية التشبيك، إذ أنها تقيم شبكات واسعة على الصعيد العالمي، انطلاقا من استغلالها لتكنولوجيا الاتصال الحديثة وبالخصوص الشبكة العالمية للمعلومات، بحيث أنها تستمد مبررات مشروعها من رسالة كونية، لا تؤمن بالحدود، وترتب عن هذه الوضعية زعزعة السياسي وأبعاد ودلالة الزعامة السياسية بشكل خاص، إذ أصبحت الزعامة تنفلت انفلاتا كليا من أي تحديد مجالي، فالسياسي والزعيم أصبح أكثر ارتباطا بالجماعة أو الجماعات التي تؤمن بهذه الرسالة أو بهذا الزعيم بغض النظر عن التحديدات المجالية[3].

تمثل الحركيات العابرة للحدود بوصفها إفرازا للعولمة تجميعا لعدد كبير من العوامل، حيث يشكل الكوني نقطة البداية وليس المحلي، لذلك تفرض الديناميات الكونية ذاتها في أي فهم لظواهر التغير التي مست وتمس المجتمع الحديث.

يعيد الوضع الراهن طرح بعض الاشكاليات التي ارتبطت بتطور ونشأة العلوم الاجتماعية، والتي تمثلت في ثنائية الاختلاف والتشابه أو التعدد والتماثل وإن بمنطلقات ورؤى جديدة.

وبالفعل، نتج عن هذه التحولات الراهنة بروز العديد من الظواهر:

أولا: شكل التوسع الكبير للمجالات الاجتماعية التي أصبحت خاضعة لشبكات العولمة أهم ظاهرة على الاطلاق في المجتمعات الحديثة، فإذا كانت هيمنة البعد الاقتصادي هي السمة الأساسية التي ميزت بدايات العولمة، وبالتالي فكل الأبحاث والدراسات المتعلقة بها لم تبتعد عن هذا البعد، غير أن تحولا كبيرا حدث، فقلب كل المعطيات والوقائع، وأصبحت كل الأبحاث والدراسات تقترن بالعلوم الاجتماعية بمختلف فروعها وتخصصاتها، بحيث أصبح كل شيء يلتصق بالعولمة وبأبعاد متعددة ومتباينة، فالعولمة ليست تراكما لمتواليات إحصائية حول التجارة

[1] -Gaston Bouthoul : **la guerre**, Paris, Ed :PUF, 4eme edition1963.

[2] - Jean-Louis, Guigou : « Etat – Territoire- nation : convergence ou divergence» in **la revanche des territoires** ,Paris, éd :L' Harmattan,1995 p55

[3] - Paul Claval : **Espace et pouvoir** , Paris, éd : PUF, col : espace et liberté, 1978

والاستثمارات، ولكنها بالإضافة إلى ذلك هي تمثل للعالم أو فينومولوجيا حول العالم، فكل الظواهر والوقائع ليست مستقلة عن النظرة التي تتشكل حولها، فالتغير بهذا المعنى يهم القيم والتمثلات والذهنيات، وبالتالي لا يمكن التفكير في الانسانية التي تعيش فوق هذا الكون إلا كجماعة بحدود كونية[1] une communauté au frontières planétaires

ثانيا: جعلت الحركيات العابرة للحدود مصير الانسانية مترابطا ومتشابكا ومتداخلا وموحدا، فالاقتصادي كوجه من أوجه العولمة لم يعد البعد الأكثر أهمية، والذي جسدته حركة الرساميل والاستثمارات وهيمنة الشركات المتعددة الجنسيات، وإنما برزت وقائع وظواهر أخرى لا تقل أهمية من البعد الاقتصادي، والتي يمكن إبراز بعض من ملامحها في العناصر التالية:

نتج عن سقوط حائط برلين وضع جديد على الصعيد العالمي، إذ أعطى نوعا من الشرعية السياسية لليبرالية الجديدة، بحيث تراجعت كل أشكال الصراع الايديولوجي والفكري، وأفسح هذا الوضع الجديد المجال واسعا أمام حركية من نوع جديد قوامها حرية تنقل الاشخاص وبالخصوص تنقل الادمغة، فأصبح التنافس يميل أكثر فأكثر نحو العلم والمعرفة عوض التنافس القائم على التراكم المالي والاقتصادي.

في ظل هذه الواقع الجديد، لم يعد الانسان سيدا وحرا، يتحكم في قراراته، ولم يعد بإمكانه تحديد غاياته وسبل تحقيقها، وباختصار أصبح عاجزا عن التحكم في مصيره، وبالخصوص مع تشكل ظاهرة ما أصبح يعرف بالأخطار المشتركة risques partages[2]. والتي بلغت ذروتها في تسرب الاشعاعات النووية (ولنتذكر مفاعيل تشرنوبيل) والاخطار البيئية ومشاكل التلوث، يضاف الى ذلك انتقال عدوى الأمراض والأوبئة، بحيث أصبح كل خطر أو تهديد يصيب بلدا ما إلا ويستدعي ذلك استنفارا عالميا.

بيد أن ظهور الانترنت شكل الظاهرة الأهم، والتي سمحت للحركيات العابرة للحدود بفرض نفسها كعامل مفسر للعديد من ظواهر القطيعة والتغير على الصعيد العالمي، ذلك أنها سمحت بالتملك الاجتماعي للعولمة، فمعظم المجتمعات انتقلت من حالة التخوف والتوجس من هذه الظاهرة، وما

[1] - ZAKI Laidi :" La mondialisation comme phenomenologie du monde " in http://www.laidi.com/papiers/monde.pdf

[2]- ibid.

نتج عنها من تحولات عميقة مست السلوك والتمثلات، إلى مرحلة جديدة فرضت التعامل مع الوضع الجديد انطلاقا من العمل على توجيهه والتحكم فيه ومحاولة احتوائه.

أحدثت العولمة آثارا اجتماعية زعزعت النظام الاجتماعي القائم، وانغرست في البنى العميقة لمعظم المجتمعات، " فكل المجتمعات – كما يقول ليدي زاكي -بحاجة لأسوار رمزية لتعبر عن خصوصياتها و تمايزها، والواقع أن هذا البعد هو الأقل أهمية، فالخصوصيات التي تفرض نفسها هي تلك التي تكون لها أكثر قابلية للتنازل " [1].

لا يمكن فهم العولمة إلا من خلال وعبر التمثلات التي أفرزتها، بحيث ينبغي النظر إليها بوصفها متخيلا اجتماعيا، ذلك أنها ساهمت في احداث تغيرات عميقة وجذرية، وأدت إلى تكريس التجديد وفرض القطائع في السلوك والتمثلات، ولعل أبرز ما ترتب عنها هو بروز ظاهرة التشابه في العالم le semblable dans le monde ، والتي تجسدت في الهيمنة الكونية للحداثة وقيمها، إذ أن هناك تقارب وتشابه كوني في أنماط الحياة، فهناك تشابه في مراكز المدن والاشكال الهندسية والخدمات والسكن وأنواع الاكل والمطبخ، فالكوني يفرض ذاته أينما توجهنا وحللنا، فنحن إزاء عالم بحدود أقل [2].

ترافقت هذه الظاهرة مع تشكل حياة يومية على الصعيد الكوني، فاليومي لم يعد يقترن بالفرد والبعد الوطني، وإنما أصبحت له أبعاد كونية [3]، ذلك أن كل الاحداث التي تقع في العالم تعاش بشكل جماعي وبانفعالات مشتركة، كما حصل ذلك مع موت الاميرة ديانا وإعصار تسونامي وغيرها من الاحداث.

اقترنت هاتين الظاهرتين بولادة مجال للتواصل، والذي يفترض تشكل أنظمة من التواصل والمفاهيم والخطابات وحتى الكلمات[4].

2- المجال العام وبداية نهاية الاختلاف:

[1] - Zaki Laidi : » la mondialisation est aussi un imaginaire » **in http://www.revue-projet.com/articles/2005-4-la-mondialisation-est-aussi-un-imaginaire/**

[2] - ibid

[3] - ibíd.

[4] - ibid.

لا يعني التواصل فقط تبادل معلومات ومعطيات، وإنما هو في العمق تأويل للأحداث والوقائع، والتي تتوخى تأسيس قواعد للعيش المشترك، بحيث أن كل تواصل ينبغي أن يبنى على قواعد وأخلاق تستند على الاقناع والحجاج، والذي يفترض اللغة وسيطا، وحاملا للمعنى والدلالة، ويقتضي أيضا أن تنبني كل عمليات التفاهم على ادعاءات الصلاحية، والتي يمكن رفضها كما يمكن قبولها[1].

يقوم التواصل بالمعنى الذي تحدده كتابات يورغان هابرماس على التأويل، والذي يفترض استحضار المجال الرمزي، فالتواصل شكل خيطا ناظما بين مختلف التيارات الفلسفية، بحيث كانت الغاية منه تحقيق نوع من العقلانية، إذ ظل كامنا في كل الفلسفات القديمة كما في الفلسفات المعاصرة، غير أنه وجد انطلاقته نحو نوع من الاكتمال من خلال التواصل الايتيقي، ذلك أن كل تواصل هو فعلا ينبني ويتوخى التفاهم واستحضار الآخر ضمن مجال عمومي قائم على الاختلاف والحوار، حيث يكون التوافق هو المبدأ المنظم، والذي يسمح بتشكل رأي عام مبني على نوع من الإجماع، يقول هابرماس: " إن التواصل ليس سوى ذلك التفاعل الرمزي، والذي يتم بين فاعلين، وذلك بالارتكاز على معايير التداول " [2].

يتحدد التواصل -إذن - بوصفه تفاعلا بين ذوات، وحيث تكون غايته الأولى خلق التفاهم، هذا التفاهم الذي يتأسس على العقل، ويستند على قواعد أخلاقية ومنطقية، بحيث يصبح الحجاج هو السيد الذي يحكم وينظم المجال العمومي بوصفه مسرحا لتبادل البراهين والحجج، وبالتالي يصبح التأويل هو محور كل السياقات التواصلية بوصفه يسمح بإنتاج دلالات لا نهائية، فتصبح العقلانية هي تلك التي تسعى الذات أو الذوات إلى تحقيقها أثناء عمليات التواصل، والتي يكون الهدف منها تحقيق الاتفاق والإجماع[3].

لا يعكس التواصل -كما حدد هابرماس -الواقع كما هو في المجتمعات الحديثة، وإنما يشكل مشروعا لما ينبغي أن يكون عليه الوضع، أو هو بمثابة أفق فلسفي يسمح بتجاوز الحداثة وأزمتها، والعقلانية القائمة على العلم والتقنية.

---

[1]-Jürgen Habermas : **la theorie d'agir communicationnel**, Paris, Ed ; Fayard 1987, p115

[2] -Jürgen Habermas: **la technique et la science comme idéologie** ،Paris ،éd: Galimard,1973 ،p22

[3]-عبد القادر بوطالب:" العقلانية بين الفعل الغائي والفعل التواصلي '" **مجلة الكلمة** العدد50 السنة 2011

تشير الوقائع في الوقت الراهن، أن التواصل – كيفما كان محتواه وآبعاده و أطرافه - أصبح مستحيلا كعملية تفاعل وتفاهم، ولا يتحقق بالمعنى الذي حددته فلسفة التواصل في الفكر الغربي المعاصر، فرغم هيمنة وانتشار تقنيات التواصل والاعلام الحديثة والمتطورة واكتساحها كل جوانب الحياة اليومية للإنسان المعاصر، يمكن أن نسجل إحدى المفارقات الكبرى، والتي ميزت الثورة التقنية في مجال التواصل وانتقال المعلومات هو موت التواصل أو نهايته، ذلك أن المنطق الذي يهيمن على هذه الثورة هو ذلك الذي تتحكم فيه الرأسمالية العالمية، إذ يصعب الحديث عن أي شكل من أشكال التواصل، فالذوات ليس بمقدورها انتاج وخلق المعنى وتأويله، فهي تتميز بالسلبية، ذلك لأنه فرض عليها استهلاك وتلقي كم هائل من المعلومات والمواقف والتصورات الجاهزة بحيث تختفي كل أشكال التواصل أو التفاعل.

وهكذا إذا ما أخدنا الشبكات التلفازية كإحدى تقنيات الاتصال والاعلام، والتي أصبحت تشكل مجالا عموميا يمارس هيمنة على كل المجالات الأخرى، نلاحظ أنه أصبح محكوما بمنطق السوق، إذ هنا تشابه وتماثل في كل ما يعرض على القنوات العالمية، فهي من جهة محكومة بمصالح اقتصادية عالمية، ومن جهة ثانية، فهي خاضعة لمنطق الاستعجال والسرعة، الأمر الذي لا يساعد على تشكل وإنتاج رأي عام عقلاني، فكما يقول أفلاطون " إننا لا نستطيع التفكير في حالة الاستعجال" : وبالتالي نحو إزاء وضع يهدد الديمقراطية والحياة السياسية[1].

في ظل هذه الوضعية، حيث يكون الاستعجال سيدا ومهيمنا، وتكون الموضوعات وطرائق تحليلها خاضعة لنفس المنطق، فإننا-بالضرورة -نتجه نحو خلق حالة من التنميط والتشابه على صعيد المواقف والتمثلات والذوق والسلوك، وينسحب الأمر نفسه على وسائل الإعلام الأخرى بمختلف أشكالها وأدواتها.

يبدو في هذا السياق من الضروري طرح التساؤل التالي: هل بالإمكان خلق مجال موازي خارج هيمنة هذه التقنيات، والتي في ظله يمكن تأسيس تواصل قائم على التفاعل وإنتاج المعنى بشكل لانهائي؟

[1] - Pierre Bourdieu : **sur la télévision**, Paris, liber éditions, 1997.

تبدو من الصعب الإجابة عن هذا التساؤل، ذلك أن مجال التواصل والاتصال في المجتمعات الحديثة يبدو محكوما بشكل صارم بمنطق السوق، فالمصالح الاقتصادية العالمية تخترق هذا المجال، فهي عابرة للحدود وغير قابلة للتحديد المجالي.

بدأ الانسان – إذن – يفقد شيئا فشيئا قدرته على التواصل والتفاعل، وأصبح أكثر سلبية من ذي قبل، وغير قادر على التحكم في مصيره وتشكيل وعيه بعيدا عن التأثيرات التي تمارسها وسائل الاعلام والاتصال.

يقود هذا الوضع إلى حالة من التنميط والتشابه والذي قد يسمح بالقول بنهاية الاختلاف والتعدد، لكن ومع ذلك يمكن اعادة السؤال الذي طرح دومينيك فولطون Dominique wolton والذي قد يسمح لوسائل الاعلام والتواصل من التحرر من منطق السوق والمصالح الاقتصادية الكبرى، بحيث يتشكل نوع من الاختلاف مما يؤدي إلى تبلور رأي عام قائم على الاختلاف، فليس وحده عالم الاجتماع من يستطيع التحرر- كما يقول بيير بورديو- من هيمنة هذا المنطق، وإنما ذلك يمكن أن ينسحب على كل الفاعلين بما فيهم رجال الاعلام والاتصال. أليس الكل خاضع لنفس الشروط الاجتماعية والاقتصادية[1] ؟..

3- ظاهرة التشابه والديناميات الكونية

أصبح من الصعب تبني مفهوم العزلة الثقافية في مقاربة ظواهر القطيعة والاستمرارية في المجال الثقافي، ذلك لأنه يستحيل تجاهل وانكار عمليات الاحتكاك والتفاعل والاقتباس بين الثقافات والحضارات، وبالتالي فظاهرتي الاختلاف والتشابه أصبحت تطرح برؤى جديدة ومغايرة، والتي من دونها يصعب فهم مجمل العمليات المتعلقة بالانتشار الثقافي، وأصبحت كل مقاربة تحاول فهم ظاهرة التغير الاجتماعي في المجتمعات الحديثة قاصرة وعاجزة ما لم تستحضر الديناميات الكونية.

هكذا، ونتيجة ظاهرة التشابه الكوني، والتي تكرست أكثر مع ظهور الحركيات العابرة للحدود، والتي أدت الى بروز إحدى المفارقات الكبرى والتي ميزت المجتمعات الحديثة، والمتمثلة في هيمنة

[1] - Dominique wolton :" une critique de la critique, Bourdieu et medias" in **sciences humaines** :la sociologie: bilan critique,quel héritage, numéro spécial ,2002.

نوع من الثقافة الكونية، والتي يقابلها في نفس الوقت عودة قوية لإحياء الهويات المحلية والتشبث بالخصوصيات الوطنية.

يعتبر بعض الباحثين أن ظاهرة العودة إلى الهويات والخصوصيات المحلية والتشبث بها حد التطرف والتعصب يشكل نوعا من المقاومة لما يمكن تسميته بالغزو الثقافي العابر للحدود، والذي يعتبر مؤشرا لبداية هيمنة حضارة على باقي الحضارات.

والواقع، أن هذه المقاومة ليست أحادية وذات اتجاه واحد، وانما هي متعددة الأقطاب والاتجاهات، اذ يرى فيها البعض بداية انهيار هيمنة حضارة أو ثقافة معينة على الصعيد العالمي، وبالتالي بروز تعددية حضارية وثقافية، غير أن الكثير من الوقائع والمعطيات تميل إلى اعتبار كل المحاولات الهادفة الى العودة إلى الهويات المحلية والتشبث بالخصوصيات مجرد محاولة يائسة أمام نموذج حضاري كوني مرتبط بتفوق اقتصادي وسياسي وعسكري، وعليه، فنحن نسير نحو تكريس نمط ثقافي وحضاري سمته التشابه والتماثل.

يتجه العالم – إذن -نحو اعلان هيمنة نموذج حضاري موحد، يبدأ من اللباس وينتهي بتكريس لغة عالمية، بحيث هنا تماثل في الأذواق وأساليب التفكير والقيم والأخلاق. فهل بالإمكان الحديث عن تفوق وانتصار هذه الاشكال على المقاومة الثقافية والحضارية والتي تبديها الكثير من شعوب العالم؟

إن المغلوب -كما يقول ابن خلدون-مولع بالتشبه بالغالب في كل شيء، وإذا كانت الاوضاع في الوقت الراهن مغايرة للأوضاع الذي عاصرها ابن خلدون، وحاول وصفها، ذلك أن الاوضاع الحالية في الكثير من المجتمعات المعاصرة تبدو استثنائية في تاريخ البشرية، وعلى جميع الاصعدة والمستويات، ذلك أنها تكرس عوامل الصراع والنزاع. لهذا، وإذا ما انطلقنا من اعتبار نزعة التمركز حول الذات شعورا كونيا، فإن ذلك يفرض زعزعة مركزية ثقافة أو حضارة معينة في العالم، وبالتالي إن القول بتعدد الثقافات والحضارات وتعدد عقلانيتها، فكل ثقافة أو حضارة مهما كانت عقلانيتها، والمنطق الذي يميزها، فهي ليست سوى وسيلة لفهم العالم وتنظيمه، والذي ينبغي أن يترتب عليه مبدأ نسبية الثقافة.

وبالفعل، بعد احداث 11 شتنبر 2001 ازدادت العوامل المكرسة للنزاع والصراع على الصعيد العالمي والتي اتخذت أبعادا حضارية، وساهمت في اعادة التفكير والنقاش في مسألة الاختلاف والتعدد والتنوع والتشابه.

تبلورت نتيجة الأسئلة التي ارتبط بهذا السياق بإصدار اعلان عالمي حول الاختلاف الثقافي، والذي اعتبر التعدد الثقافي تراثا مشتركا للإنسانية ينبغي حمايته.

تضمنت المادة الاولى من هذا الإعلان ما يلي: " تتخذ الثقافة أشكالا متنوعة عبر الزمان والمكان ويتجلى هذا التنوع في أصالة وتعدد الهويات المميزة للمجموعات والمجتمعات التي تتألف منها الانسانية.

والتنوع الثقافي بوصفه مصدرا للتبادل والتجديد والابداع هو ضروري للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية، وبهذا المعنى فإن التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية وينبغي الاعتراف به والتأكيد عليه لصالح أجيال الحاضر والمستقبل"[1].

ونقرأ في مادته السابعة ما يلي:

"إن كل إبداع ينهل من منابع التقاليد الثقافية، ولكنه يزدهر بالاتصال مع الثقافات الاخرى، لذلك لا بد من صون التراث بمختلف أشكاله وإحيائه ونقله إلى الاجيال القادمة كشاهد على تجارب الانسان وطموحاته، وذلك لتغذية الابداع بكل تنوعه والحفز على قيام حوار حقيقي بين الثقافات " [2]

يعيد هذا الاعلان طرح الإشكاليات والقضايا التي تفرضها الحركيات العابرة للحدود، إذ يبدو أن ثمة وعي عميق يحاول طرح ظاهرتي الاختلاف والتعدد ولكن في إطار الوحدة.[3] Unité dans la diversité

خاتمة

لقد كرست الحركيات العابرة للحدود وضعا كونيا يقوم على التماثل والتشابه، بحيث هناك قيما وتمثلات وتصورات انتشرت في كل ارجاء العالم، أصبح من المستحيل التراجع عنها، بيد أن

[1] - **déclaration universelle de l'UNESCO sur la diversité culturelle 2001, in www.unesco.org.**

[2] - ibid.

[3] - ibid.

هذا الوضع لا يلغي حق الاختلاف ومبدأ التعدد، ذلك أن الكل - سواء بصيغة المختلف أو المتشابه- مجبر على العيش فوق هذه الأرض بشكل جماعي، فالعزلة ليست ممكنة، وبالتالي أصبح مفروضا على الجميع تقاسم كل شيء فوق هذه الأرض : تقاسم الأخطار الكونية والمشاعر والانفعالات، بل وتقاسم حياة يومية، وهي تلك التي تختزل كل المسافات و الأزمنة، وتجعل الكل يعيش في جماعة حدودها هي حدود الكون ذاته.

المراجع المعتمدة :

1- بوطالب عبد القادر:" الاختلاف والتماثل الثقافيان، رؤى انتروبولوجية"، **مجلة كلية الادب والعلوم الإنسانية** بتطوان العدد17 السنة 2013

2- جيرار كليرك : **الأنثروبولوجيا والاستعمار،** ت، جورج كتورة ، معهد الانماء العربي ، الطبعة الأولى ،1986.

3 - رالف لنتون: **الانتروبولوجيا و أزمة المجتمع الحديث**، ترجمة، عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية صيدا / ببروت ومؤسسة فركلين بيروت / نيويورك ،أنظر على وجه التحديد : المقام المشترك للثقافات، عمليات التغير الثقافي ، مفهوم الثقافة.

4-عبد القادر بوطالب:" العقلانية بين الفعل الغائي والفعل التواصلي "' **مجلة الكلمة** العدد50 السنة 2011 1

5 - Claude Lévi-Strauss : **race et histoire**, Paris , ed :Gallimard, col, folio essais 2003

6 - Roger Bastide :" diffusionnisme " **in encyclopoedia Universalis**, (en ligne) http://www.universalis.fr/encyclopedie/diffusionnisme/

7 - Balandier Georges :**Anthropologie politique**, Paris, ed :PUF, 1971

8 -Julien Freund : **Essence du politique**, Paris, éditions Sirey,1965.

9 -Gaston Bouthoul **: la guerre**, Paris, Ed :PUF, 4eme edition1963.

10 - Jean-Louis, Guigou : « Etat – Territoire- nation : convergence ou divergence» in **la revanche des territoires** ,Paris, éd :L' Harmattan,1995 p55

11 - Paul Claval : **Espace et pouvoir** , Paris, éd : PUF, col : espace et liberté, 1978

12 - ZAKI Laidi :" La mondialisation comme phenomenologie du monde " in **http://www.laidi.com/papiers/monde.pdf**

13 - Zaki Laidi : » la mondialisation est aussi un imaginaire » **in http://www.revue-projet.com/articles/2005-4-la-mondialisation-est-aussi-un-imaginaire/**

14-Jürgen Habermas : **la theorie d'agir communicationnel**, Paris, Ed ; Fayard 1987, p115

15 -Jürgen Habermas: **la technique et la science comme idéologie** ،Paris ،éd: Galimard,1973 ،p22

16 - Pierre Bourdieu : **sur la télévision**, Paris, liber éditions, 1997.

17 - Dominique wolton :" une critique de la critique, Bourdieu et medias" in **sciences humaines** :la sociologie: bilan critique,quel héritage, numéro spécial ,2002.

18 - **déclaration universelle de l'UNESCO sur la diversité culturelle 2001, in www.unesco.org.**